



حmate أيقونة التضحية، وملحمة القرن العشرين... الجميع يراها مجردة راح ضحيتها ما لا نعلمه من الأرواح، لكنني أراها ملحمة سطرت بدماء عشرات الآلاف من أبناء هذه المدينة الأبية، التي حاولت أن تغسل عنها عار اغتصاب الأسديين مبكراً، فجن جنون المغتصب... لم يعتد حافظ الأسد وطغنته الفاسدة على المخالفه والعصيان، فعاد سفكاً بالدماء ذات اليمين وذات الشمال. لم أدرك يوماً أن يشراً يمتلك هذا الكم من الحقد على أبناء طينته إلا عندما قرأت ما حصل هناك مما تسرب إلينا من شهود عيان -على قلتهم- عن هول ما شهدوا... ورغم شح المصادر والصور هالني ما سمعت.. قتل... دمار... تعذيب... ذبح... رمي من الأسطح... هدم منازل على رؤوس أصحابها..

يا الله عندما أغمض عيني وأتخيل ما حصل.. عن حجم الرعب الذي لاقاه هؤلاء البشر قبل أن تسلب حياتهم تعصفي الأفكار إلى هذا اليوم، وأرى نفسي أضم ولدي مختبئاً في إحدى الزوايا في المنزل وأصوات القصف والعلوي من حولنا وأنا أرتجف.. وأخفي خوفي من أجل طفلي الذي بين يدي الذي جمد الخوف الدمع في عينيه الأصوات التي تهدر حولنا تختلط بين هدم وصرخ وجلبة، وكلما علت الأصوات كلما تشبث بي أكثر وغرز أظافره في جسمي.. ويرتجع المنزل من شدة القصف.. أستطيع سماع أصوات المنازل تهدم حولي.. هل خرجت جاري يا ترى؟ هل هدم المنزل على رأسها وأبنائها

الخمسة؟ يا ترى ما مصير أختي؟ زوجي الذي خرج ولم يعد؟ يا رب.. سأستحضر آيات قرآنية وأبدأ بقراءتها بصوت خافت لأهدئ من روع هذا الطفل المسكين علينا نتناسي ما يحصل حولنا، وتمضي ساعة وساعتان وثلاث ونحن محشوران في هذه الزاوية في الغرفة الداخلية التي شعرت ولو وهما إنها الأمان في المنزل، يغفو الطفل بين ذراعي بعد ساعات ثقال.. تبدأ الأصوات من حولي قليلاً أتمالك نفسي أحضرن طفلي بقوة وأحاول الوقوف على قدمي الخدر، يسري في جسمي من البرد والرعب.. أسمع جلبة أتراجع وأعود لمخبئي مرتعبة ثم أسمع صوت زوجي: آمنة آمنة.. علينا أن نرحل فوراً. ترك المنزل؟... أسأل أنا : إلى أين؟؟؟!!!

يرد بصوت أجنّش مبحوح: لا أدرى.. المدينة تهدم عن بكرة أبيها.. لم أستطع الخروج من الحي، تسلقت من سطح إلى سطح آخر.. ما رأيته هو مبانٍ سويت بالأرض، وجثث لرجال ونساء وأطفال.. ينونون ذبحنا يا آمنة ينونون ذبحنا.. هدموا بيوت الله يا ويحهم.. وعلى عجل أخذنا ما قل حجمه وغلا ثمنه من متاعنا وخرجنا في رحلة النجاة بأرواحنا.. عندما نزلت إلى الحي.. أي حي؟ غابت معالم الحي.. القدر هو الذي أنقذ منزلي⁽¹⁾... كل ما حولي كان مهداً.. أتعثر الخطى من الركام... يا إلهي جثة طفلة.. على بعد خطوات منها ما يبدو إنها أنها.. زوجي يمسك يدي ويسحبني.. يتلقاني.. يصرخ بي.. لأزيح وجهي وهو يراني أصرخ يا لله الله.. اثنا عشر رجلاً مربوطاً يبدو أنهم أعدموا ميدانياً ملقاً على قارعة الطريق لم أعد استوعب أين أنا... أين أخطو.. فقدت الإحساس بالزمان والمكان.. وأصبحت أمشي مثل الأموات الأحياء أبكي بهستيرية وصغيري بدأ يبكي ليكائي ويحسس على رأسه ويقبلني ليخفف عنّي ما لا تدركه براءته.. وزوجي يجرني متتساماً بجبروت لا يخفى حجم الأسى والدموع التي كانت تنزل بصمت على خديه... كنت أسمعه يحتسب بصوت هامس ودمعوه لم تعد ملكه تجري جرياناً لكن بأنفه.. رجل لم أعهد منه البكاء يوماً...

وصلنا إلى السيارة التي ستقلنا نحن وعائلتان أخريات تركنا جميعاً وراءنا ماضياً وحاضراً، ومدينة أبي الفداء التي كانت فدوى لكل سوريا في هذه الملحة.. محيت معالم أغلب المدينة لم نعد ندري في أي مكان نحن.. حريق أصوات رصاص تطلع في المكان.. مبانٍ مهدمة.. الخروج منها كان خيارنا الوحيد إن أردنا البقاء أحياء، كان بقاؤنا يعني موتاً محتماً وخروجهنا منها أحياء معجزة سماوية!! ربما لنرؤي ما حصل في هذه الأيام التي كتبت فيها حماة الملحة.. لنبقى الشهداء الأحياء على مدينة في القرن العشرين كانت تسمى حماة.. لكن الحقد الأسدوي ويدي حافظ ورفعت مغمسة حتى الأكواب في دماء أهلها.. حماة التي لم يكف السفاحون دماء أبنائها فأفرغوا حقدم في بنائهما.. جوامعها.. كنائسها.. آثارها.. شجرها.. عصافيرها.. قتلوا الحياة ثم قتلوا الموت... نعم قتلوا حتى الموت.. لم يكفهم ذبح الإنسان بل كانوا بعدها يحرقوه... يدوسوه بدباباتهم... يدنسوه بجرافاتهم ليدفنوا الأشلاء ويطمسوا ما اقترفت أيديهم...

هذا غيض من فيض.. لا تستطيع مدونة بسيطة توصيف ما حصل.. لو أخذتم دماء جميع الشهداء وجعلتموه مداراً تسطر الملحة في مجلدات ومجلدات لتحكي قصة كل شهيد.. لكن يا حسراته إنها مجرد محاولة خجولة لتحريك ضمير العالم الذي غيب حماة في الثمانينات وتناسها وصمت عن مقتلة هي الأضخم في القرن العشرين، والآن يتنددون علينا بالإنسانية... واليوم بعد ثلاثين عاماً.. ما أشبه اليوم بالبارحة.. ما أشبه حافظ ورفعت ببشار وماهر... اليوم التاريخ يعيد نفسه.. سوريا كلها اليوم أم الفداء.. العالم كله يتفرج لا أحد يحرك ساكناً.. لك الله يا سوريا، ولك الله يا حماة يا أم الشهداء، يا أول من بدأ بخط ملحمة النصر السورية، واليوم تستمر الملحة.

(1) الصحيح: النسبة لله وليس للقدر.

المصادر: